التكتيك الحربي عند الحماديين "حرب الخديعة أنموذجا"

الأستاذ/ بوقاعدة البشير

أستاذ مساعد ب/جامعة سطيف 2

الملخص:

يرصد هذا المقال مجموعة نماذج من تكتيك حرب الخديعة التي اتّبعها أمراء الدولة الحمادية في مختلف حروبهم التي خاضوها خلال فترة حكمهم لبلاد المغرب الأوسط ، على غرار حربهم الدفاعية قبل مرحلة البناء و التأسيس ضمن مساعي الانفصال عن الكيان الأم ، أو في حربها الهجومية ؛ تجسيدا للسياسة العسكرية الحمادية الرامية إلى توسيع نفوذها شرقا و غربا ، بالإضافة لحربها لصدّ الهجمات المتكررة على حدودها ، لكسر شوكة الطامعين في التوسع على حساب ملك بني حماد ، خصوصا من جهة الشمال. كما يرصد أيضا مظاهر الحنكة السياسية و الدهاء العسكري الذي تحلى به أمراء بني حماد من خلال هذا التكتيك الحربي المتّبع .

1-الخداع في الحرب:

الخدعة، تعني المراوغة والاحتيال. وهي اضمار شيء واظهار غيره. وتعدّ من فنون التمويه والتضليل لصرف الطرف الخصم عن حقيقة القوة العسكرية للطرف المخادع، من حيث الطريق الذي تسلكه أو المكان الذي ترابط فيه أو وقت الخروج. وتدخل الخدعة ضمن الاستراتيجية العسكرية في مجال الحرب، هذه الأخيرة التي تعدّ آلة للخداع[1].

ولو رجعنا إلى مضامين نصوص الشريعة الاسلامية لوقفنا على أن الخداع والغدر سلوك ذميم، حرمه الشرع في غير ما آية وحديث نبوي شريف،

(1)-خالد محمد عطوة: الخداع في الحرب ، رسالة ماجستير في الفقه المقارن ، الجامعة الاسلامية ، غزة ، فلسطين ، 2005م ، ص2.

فقد حثّ الله عز و جل نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم على التنكيل بالذين ينقضون عهدهم ، كما جاء في قوله تعالى من سورة الأنفال "**الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون**"[1]. أما في السنة النبوية ، فيقول صلى الله عليه وسلم: " لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان"[2]. وجاء في الحديث أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من كنَّ فيه ،كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر"[3].

بيد أنّه و مع التنفير من الغدر وسلوك الخديعة ، فإن الشريعة أجازت الخداع في الحرب لتحقيق النصر والغلبة بأقل جهد وتجنبا للخسائر، مادية كانت أو بشرية. قال النووي : اتّفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف ما أمكن الخداع إلاّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل. وحديث المصطفي صلى الله عليه وسلم بشأن ذلك صريح، حين قال كما أورده البخاري في باب"الحرب خدعة"، في ما رواه أبو هريرة وجابر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الحرب خدعة "[4].

و مع جواز الخداع في الحرب نقول : إن الإسلام قد وضع ضوابط و لم يترك الأمر على اطلاقه ، فلا بد من التقيّد بشروط الحرب و قوانينها الشرعية

---

(1)-سورة الأنفال ، الآية: 56.

(2)- وهو حديث متفق عليه ، أنظر: أبي زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، مطبوعات ميموني للنشر و التوزيع ،الرويبة ، الجزائر ،ص446.

(3)-)- و هو حديث متفق عليه ، أنظر: النووي : المصدر السابق ، ص446.

(4)-الحديث رواه البخاري ، أنظر: عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري: الجامع الصحيح ، ج2، شرحه ، محب الدين الخطيب ، راجعه ، قصي الخطيب ، ط2 ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، 1403هـ-1983م ، ص366.

التي تنصّ على احترام العهود و المواثيق و تحريم الغدر ، هذا الأخير الذي لا يعدّ من أبواب الحيل و الخدع الحربية الجائزة. فقد قال تعالى "**و أوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**"[1]. أمّا إذا لم يكن بين طرفي الصراع أيّ عهد أو ميثاق أُطلق يد الطرفين للتفنّن في الخدع المشروعة في الحرب. فقد ورد في السنة النبوية أنّ الرجل الحربي إذا دخل بلاد الاسلام بغير أمان و كان عينا جاز قتله ، كما ورد في حديث البخاري أنّه "أتى النبي صلى الله عليه و سلم عين من المشركين –وهو في سفر– فجلس عند أصحابه يتحدث ، ثم انفتل ، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: اطلبوه و اقتلوه"[2].

و عليه فقد فرّقت الشريعة الاسلامية بين ما يجوز و ما لا يجوز في مجال الحروب و حيلها ، فعلى الرغم من جواز الخديعة في الحرب بل و ضرورتها في المعارك أحيانا على المستوى التكتيكي و الاستراتيجي فإن ذلك لا يعني نقض العهود و الغدر في الحروب. بيد أنّه و من الأهمية بمكان التذكير أنّ ما أسلفنا ذكره يُشرع في حالة حرب أهل الشرك ، و دفع أيّ اعتداء خارجي على البلاد يهدّد أمنها و سلامة أهلها و ممتلكاتها ، و غيرها من المواقف التي تستوجب اللجوء إلى حرب الخديعة كخيار استراتيجي في السياسة العسكرية لأيّ قوة سياسية تنهجه. أمّا ما يتعلّق بدراستنا هذه فإننا سنطرق التكتيك الحربي المتمثّل في حرب الخديعة الذي اتّبعته الدولة الحمادية بغضّ النظر عن الأسباب الدافعة لنهجها ذلك التكتيك في خضم مسيرة صراعها الطويل المتعدّد الجبهات.

---

(1)–سورة الاسراء ، الآية : 34.

(2)–عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري : المصدر السابق ، ص373.

2- التكتيك العسكري الذي تقوم عليه حرب الخديعة:

يقوم تكتيك الخديعة في الحروب والمعارك التي تخوضها القوى المتحاربة على فنون وأشكال عدة تختلف من عصر لأخر تبعا للتطور الذي تعرفه في مجال العلوم خاصة العسكرية منها والامكانات التي تمتلكها في نفس المجال. وسنقف من خلال دراستنا هذه -ولو بشكل مختصر- على بعضها، كما سيأتي تبعا:

- نصب الكمائن، عن طريق الاختباء في موضع و مباغتة العدو أو الخصم على حين غرة ، فيربك و يرعب قواته خصوصا إذا باغته من الخلف ، وكان موقع الكمين مناسبا كمنطقة وعرة أو في سند جبل، فتكون نسبة النصر كبيرة وحجم الخسائر قليل. وفي ذلك يقول ابن العربي: الخداع في الحرب يقع بالتحريض وبالكمين ونحو ذلك[1].

- و تعدّ من أهمّ فنون حرب الخديعة مفاجأة العدو وأخذه على حين غِرَّة قبل أن يستعد للقتال عن طريق الإغارة على جيش الخصم ليلا. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث بسرايا كثيرة فيوصيهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً حتى يباغتوا عدوهم[2].

- و من الخداع أن يوهم الخصم بكثرة و قوة جيشه اذا ما افتقر إلى القوة والعدد الكافي من العساكر.

- من الخدع الحربية أيضا ، أن قائد الجيش إذا أراد غزو بلد في الشرق مثلا ، أظهر أنه يريد الغرب، أو التظاهر بالزحف من طريق و لكن التقدم الحقيقي من طريق آخر.

---

(1)-خالد محمد عطوة : المرجع السابق ، ص99 و ما بعدها.

(2)-للمزيد من التفصيل حول السرايا التي بعث بها النبي صلى الله عليه و سلم و أوقات مسيرها ، أنظر: عماد الدين أبي الفداء اسماعيل ان كثير: البداية و النهاية ، ج5 ، تحقيق ، عبد الله بن محسن التركي ، دار هجر للطباعة و النشر و التوزيع و الاعلان ،1418هـ -1997م ، ص36 و ما بعدها.

والغرض من ذلك ضمان سرية الهجوم ، و تحقيق عنصر المفاجئة و المباغتة، حتى لا يأخذ الخصم أو العدو احتياطاته الكفيلة بصد الهجوم المحتمل، واستكمال استعداداته الضرورية لذلك. بالإضافة إلى ادراك حيلة عدم تفطّن الخصم للطريق الذي تسلكه الحملة المباغتة فلا يسارع إلى الترصد لها أو اعداد أي كمين يحول دون تحقيق أهدافها. و من الأمثلة على ذلك في تاريخ المغرب الأوسط في عصره الوسيط ، الحملة التي قادها عبد المؤمن بن علي الموحدي سنة 547ه /1152م على بلاد بني حماد ، حين دخل بجاية العاصمة الحمادية وأسقط دولة الحماديين. إذ يذكر ابن عذاري أن عبد المؤمن بن علي قد خرج في حملته على بجاية "مظهرا للنّاس غزو الروم بجزيرة الأندلس ، فلمّا وصل إلى سلا، أقام بها شهرين يردّد الرأي في نفسه ، ثمّ توصّل منها إلى سبتة ، مظهرا للناس الإجازة إلى الأندلس، ثمّ رحل منها راجعا مظهرا الانصراف إلى مراكش، وأشاع الذكر بذلك للناس، ومقصده في نفسه ونفس خاصته بجاية "[1] وبذلك لم يشعر أهل بجاية إلاّ وهو في أعمالها"[2].

– محاولة تشتيت قوات الخصم و اثارة الذعر بين صفوفها. و هي من الأساليب العسكرية التي تلجأ إليها القوى المتصارعة تروم النصر في حروبها. ومن بين أوجه ذلك، السعي الحثيث إلى اقامة تحالفات لتقوية جناحها وفي المقابل العمل على افشال التحالفات المضادة، كشأن الوقائع التاريخية التي سبقت موقعة سبيبة

(1)–ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، ج 1، تح ، ج س.كولان و إ.ليقي بروقنصال ، ط 3 ، دار الثقافة ، بيروت ،لبنان ، 1983 ، ص46 –47.

(2)–شهاب الدين النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج24 ، تح ، عبد المجيد ترحيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت.ن) ، ص166.

بين عناصر الأسرة الصنهاجية، وسيأتي تفصيله فيما يأتي من عناصر هذه الدراسة[1].

– من الخدع الحربية أيضا، هي استغلال الفترات العصيبة التي تمرّ بها الدولة المراد الهجوم عليها ، كتفضيل الهجوم في الوقت الذي تكون فيه تلك الدولة في صراع مع طرف أخر أو تعرف أزمة اقتصادية أو اضطرابات داخلية. ومن ذلك ما يشبه ما جسّده الصراع الحمادي الزيري ، عندما سارع الحماديون لتحقيق طموحاتهم التوسعية على حساب الدولة الزيرية مستغلين الاضطرابات التي كانت تمرّ بها هذه الدولة بعد الدخول الهلالي إلى المغرب الأدنى وما كان له من تبعات سيئة على مستقبل دولة بني زيري[2].

– كشف أهداف الخصم و استراتيجيته العسكرية[3] فبإدراكها يكون الاستعداد والتحضير الجيد للمعركة المحتملة.

وهو ما سنقف على مثيله بين ثنايا هذه الدراسة حين التطرق إلى فصول الصراع الحمادي الزيري ، عندما تفطّن تميم بن المعز لما يُنسج من خيوط للمؤامرة الحمادية الهلالية الزناتية ضد مملكته ، و ما كان له من جهود لإفشالها، و قد نجح في قلب الهزيمة المتوقعة نصرا مظفرا[4].

---

(1)–– للتفصيل أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون : العبر و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ج6 ، ضبطه ، خليل شحادة ، راجعه ، سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،1421هـ –2000م ، ص228 ، و للمزيد أنظر: ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية و تونس ، تح ، محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، (د.ت.ن) ، ص86.

(2)–محمد ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مج 8، صححه ، محمد الدقاق ،ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1424هـ–2003م ،ص372.

(3)–خالد محمد عطوة : المرجع السابق ، ص95.

(4)–أنظر: مبحث ، موقعة سبيبة ، بين سياسة التحالف و التحالف المضاد ، من هذه الدراسة.

3-التكتيك الحربي الحمادي:

في ظل الجهود الحثيثة التي كان حماد بن بلكين (405-419ه/1014-1028م) يبذلها يروم الاستقلال بمنطقة المغرب الأوسط و الانفصال عن الأسرة الأم (الدولة الصنهاجية) خصوصا بعد تأسيسه لقاعدة بلاده العسكرية الحصينة وعاصمة دولته المستقبلية مدينة القلعة ، أخذ الصراع بين عناصر هذه الأسرة منحىً تصاعديا. فالدارس لتفاصيل الصراع -قبل و بعد الانفصال- يقف على أن الدولة الحمادية كانت تسعى في مرحلة أولى من صراعها إلى حماية ممتلكاتها بعد الانفصال حين تسعى الدولة الزيرية إلى استرجاع ما يمكن استرجاعه ممّا فقدته من أراضي مملكتها ،خصوصا النشاط العسكري الذي قاده الملك الزيري باديس بن المنصور ، الذي حاصر القلعة الحمادية سنة 406ه /1014م ، ودام حصاره لها ستة أشهر و لم يتمكن من اقتحامها[1] ، بل و استعصت على ابنه المعز أيضا بعد وفاه باديس[2]. ما يعني أن الدولة الحمادية كانت تعيش في هذه الفترة مرحلة دفاعية في سياستها الحربية كإجراء حربي يهدف مبدئيا إلى حماية ما بين أيديها من ممتلكات[3]، لتنتقل السياسة الحربية الحمادية إلى مرحلة الهجوم بدل الدفاع في فترة لاحقة، خصوصا بعد الهجرة العربية الهلالية إلى بلاد المغرب وما عرفته منطقة المغرب الأدنى من فوضى واضطراب، عكرت صفو أمن الدولة، وقلّصت حدودها، وأضعفت هيبتها ؛ فكانت عندئذ بمثابة فاتح الشهية لطموحات بني حماد التوسعية. و قد تجلى ذلك من خلال مشاهد أحداث

---

(1)-للتفصيل أكثر ، أنظر: رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر ،2007م ، ص26-27.

(2)-أنظر: ابن الأثير: المصدر السابق ، مج8 ، ص86.

(3)-للمزيد من التفصيل حول الاستراتيجية العسكرية الحمادية في ظل صراعها مع بني زيري قبل الانفصال ، أنظر: موسى هيصام: الجيش في العهد الحمادي (405 -547ه /1014 -1152م) ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، 2000 -2001 ، ص85.

السياسة العسكرية التوسيعية التي آثرها الأمير الحمادي الناصر بن علناس (454-481ه/1062-1089م) ومن بعده المنصور (481-498ه /1089-1106م)، فآخر أمرائهم يحي بن العزيز (515 -547ه / 1121 -1152م) ، هذا الأخير الذي كثف من نشاط حملاته العسكرية على أراضي المملكة الزيرية[1].

و الجدير بالذكر أن التحولات السياسية و المذهبية التي عرفتها بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري (11م) المتعلقة بقطيعة بني زيري عن الفاطميين وما أعقبها من هجرات عربية هلالية إلى أرض المغرب كانت عاملا هامّا أثّر بشكل ملحوظ على علاقات الدولتين الزيرية و الحمادية ، إذ ساهمت في توتر تلك العلاقات و تأجيج نار الصراع بينهما. كما رسمت هذه القبائل في الكثير من الأحيان خرائط متعددة جسّدت فصولا للمعارك و الحروب بين الطرفين. بل و كانت في أحيان أخرى الخصم و الحليف في آن واحد إلى جانب كيانيهما السياسيين بالمنطقة ، و هو الدور نفسه -تقريبا- ذلك الذي مثّلته إلى جانبها البطون الزناتية ، و بشكل أخصّ بالجهة الغربية من المغرب الأوسط[2].

وبالموازاة مع الصراع الحمادي الزيري كانت هناك جبهة أخرى مفتوحة للصراع الحمادي على الواجهة الغربية حينا و الجنوبية أحيانا أخرى ضد العناصر الزناتية على اختلاف أسباب الصراع و تباينها من مرحلة لأخرى ، وفي طليعتها السباق نحو الزعامة السياسية و العسكرية لبلاد المغرب ، و التوسع الجغرافي الدائم على حساب أراضيه. هذا ناهيك عن الحملات العسكرية التي

(1)-المرجع نفسه ، ص85 -86.

(2)-حول تفاصيل الدور العربي الهلالي في الصراع العسكري بين الصنهاجيين و بينهم و بين القبائل الزناتية ، أنظر: ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص27 ، ابن عذاري: المصدر السابق ، ج1 ، ص299.

شنها المرابطون من الجهة الغربية قصد التوسع شرقا و ردود الفعل الحمادية لتأديب الطامعين في التوسع على حساب أراضيها[1].

و يمكننا القول أن المعارك الكثيرة التي خاضها الحماديون ، و التي جسّدت فصول الصراع العسكري الحمادي ، قد ساهمت بشكل لافت في تمرّس الدولة الحمادية حربيا ، على غرار اتّباع النمط العسكري الذي يجمع بين التكتيك الحربي الدفاعي و الهجومي في آن واحد. و كذا من خلال النشاط المكثف في مجال الاعداد المادي و البشري من خلال التأطير المحكم و التعبئة المكثفة والتحالف المنظم. و اللافت للانتباه كذلك هو: أنّ القيادة الحمادية أولت اهتماما بالغا بالنشاط العسكري ، و حرصا كبيرا على النصر في المعارك المصيرية التي تخوضها جيوشهم في خضم صراعها المفتوح على عديد الجبهات قصد توطيد دعائم الدولة ، و ترسيم حدودها الثابتة ، و توسيع تلك الحدود في أحيان أخرى. إذ طبع أغلب الحملات الحمادية التي خرجت فيها جيوشها "القيادة الأميرية" أيّ أنّ أمراء الدولة هم من قاد تلك الحملات. بالإضافة إلى حسن استغلالهم و توظيفهم لعناصر الجيش من ذوي القدرات الذاتية و الكفاءة و الخبرة العسكرية[2].

---

(1)-و ان كان الصراع بين دولة المرابطين و الحماديين ما بلغ الحدة التي عرفها ضد أبناء العمومة ، بل كانت العلاقات تتأرجح بينهم بين السلم و المودة حينا و بين الحرب و الصراع في أحيان أخرى ، و ان كان الطابع الأول هو الذي طغى على ساحتها. و للمزيد من التفصيل حول فصول الصراع بينهما ،أنظر: ابن خلدون: العبر ، ج6 ،ص233 ، إسماعيل العربي : دولة بني حماد ملوك القلعة و بجايـــة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1998م ، ص 202 ، عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ،ط2 ،دار الصحوة للنشر و التوزيع ، القاهرة ،1411هـــ- 1999م ، ص180.

(2)-موسى هيصام : المرجع السابق ، ص109.

و هو ما يوحي لنا أنّ السياسة العسكرية الحمادية -في ظل النشاط الحربي التوسعي و الرغبة الملحّة في النصر المحتوم- تستوجب على قادتها اتّباع تكتيك حربي مميّز و فعّالا كفيلا بتجسيد ذلك النشاط ، عن طريق التخطيط المحكم للمعارك ، و اختيار المواضع و الأوقات المناسبة لخوضها ، و التعبئة الكافية و غيرها من الفنون الحربية التي كانت سندها ،و منها حرب الخديعة.

و دراستنا هذه في الحقيقة ليست مجالا نطرق من خلاله تفاصيل الصراع الحربي الذي خاضه أمراء بني حماد طيلة فترة حياة هذه الدولة بل ديدننا فيها لا ريب هو الوقوف على التكتيك الحربي المتّبع و في مقدمته حرب الخديعة طيلة ذلك الصراع المتعدد الجبهات. و الذي سنقف عليه من خلال المعارك الحربية التي قادتها جيوش الدولة الحمادية سواء كان النصر حليفها أو جانبها ؛ لقلة عدد و عدة ، أو لافتقارها لتكتيك حربي و استراتيجية فاعلة ، أو عدم نجاعة التكتيك المنتهج. و هو ما نسوقه من خلال بضعة نماذج لهذا التكتيك الحربي الحمادي منذ فترة ما قبل الانفصال عن الكيان الأم إلى غاية تاريخ السقوط والانهيار.

4- نماذج من حرب الخديعة في سياسة بني حماد الحربية:

أ- استراتيجية الانفصال عن الكيان الزيري:

لم يكن اعلان حماد بن بلكين انفصاله عن حكم بني زيري إلا بعد مسيرة من الصراع العسكري توّجت برضوخ الأسرة الزيرية إلى القبول بالأمر الواقع ، و تنازلها عن أرض المغرب الأوسط لملك حماد. بيد أنّه و ممّا يُشار إليه في هذا المقام أنّ السياسة العسكرية و التكتيكية التي انتهجها حماد بن بلكين قبل اعلانه الانفصال تنمّ عن عمل قائم على تخطيط استراتيجي محكم. بل يمكننا القول أنّنا لمسنا نوعا من الخدع في مجال التكتيك الحربي ، فبالنظر إلى السياسة التي انتهجها حماد قبل اعلان الانفصال عن أبناء العمومة من بني زيري ، نقف على

أنّه عمد في بادئ الأمر إلى اعداد الأرضية المناسبة من خلال بنائه لقلعته الحصينة بجبل عجيسة شرقي المسيلة المعروف اليوم بجبل المعاضيد سنة 398ه /1006 -1007م[1] في موضع حصين و منيع يُؤويه و يُؤوي ملكه داخل أسوراه حين يستلزم الأمر ذلك[2]. كما كانت أيضا قاعدة أشير -التي تنطوي هي الأخرى على موقع استراتيجي هام و حصين- سدّا منيعا[3] يمكن لحماد بن بلكين أن يصدّ من خلاله الخطر الداهم من جهة الشرق ، حين يجسّد نواياه الانفصالية عن الأسرة الزيرية على أرض الواقع. ناهيك عن استغلال حماد للمكاسب التي حققها كقائد عسكري ذاع صيته في حروبه ضد زناتة. هذه الأخيرة التي أثخن فيها قتلا و تشريدا ، و قهر بطونها بتكليف من ابن أخيه باديس ، على غرار ما قام به سنة 387ه /997م ، ما جعله يحظى بموافقة باديس بإدارته لشؤون المنطقة الغربية من الملكة الزيرية ، الممتدة من جبل الأوراس شرقا حتى تلمسان و ملوية غربا ، وما يقدر على فتحه من بلاد بالجهة الغربية من المملكة[4].

و على هذا الأساس يمكن القول أن حماد استغل فرصة الثقة التي حظي بها من طرف أبناء العمومة لوضع الأسس الأولى و الارهاصات الفعلية لبناء دولة حمادية حين كان لا يزال يضمر نواياه الانفصالية. و هي خدعة حربية نجح حماد من خلالها في تحقيق فكرة الاستقلال عن بني زيري بعدما خاض

---

(1)-عبد الله أبو عبيد البكري: المسالك و الممالك ، مج 2 ، تح ، جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ،1424هـ -2002م ، ص226 ، ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص288.

(2)-حول الحصانة الطبيعية التي يكتسيها موضع القلعة ، أنظر: الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،1414هـ -1994م ،ص255 ، و للمزيد أنظر: إسماعيل العربي : عواصم بني زيري ملوك أشير -القلعة- بجاية- غرناطة -المهدية ، دار الرائد العربي، بيروت ،1404هـ -1984م ،ص32.

(3)-بشأن موقع أشير الحصين ، أنظر: البكري: المصدر السابق ، مج2 ، ص241.

(4)-أنظر: عبد الحليم عويس : المرجع السابق ،ص61.

غمار العمل العسكري ، الذي أعقب رفضه التنازل عن أعمال قسنطينة وتيجس والقصر الافريقي سنة 405هـ/1015 نزولا عند طلب ابن أخيه باديس بن المنصور[1]. هذا الأخير الذي رام اختبار عمه حماد عندما تخمّرت لديه فكرة عن النوايا الانفصالية التي تنطوي عليها سياسته ، وكان رفض حماد لأمر أو طلب باديس بمثابة الشرارة الفعلية لنشوب نار الحرب بين الطرفين[2].

وفعلا كانت القلعة الحمادية الحصن المنيع الذي حمى فكرة انفصال حماد قبل أن ترى النور ، بعدما قاد باديس بن المنصور حملة عسكرية تأديبية رام من خلالها تبديد طموحات عمه حماد و فرض السيطرة الزيرية المطلقة على البلاد، فأقام حصار شديدا على القلعة[3]. و ان كانت القوة الحمادية لم تتمكن من دفع الحصار المضروب على القلعة فإنّ الموضع الحصين الذي تحوزه القلعة كان حائلا دون نجاح الحصار الباديسي في اقتحامها[4]. وعلى الرغم من طول مدة هذا الحصار –الذي دام ما يقرب الستة أشهر– إلاّ أنّه لم يفلح ، حتى كانت وفاة باديس و هو على حصاره ذاك[5]. ومنه كانت حادثة الوفاة بردا و سلاما على مصير طموح حماد في الانفصال بعدما كان قاب قوسين و أدنى من التلاشي أمام عاصفة الحصار ، ليرى النور من جديد ، و يخرج إلى العلن لا تعوزه إلا القوة العسكرية و الحنكة السياسية لبلوغ المراد.

و في ظل حصار باديس للقلعة الحمادية ، سعى حماد بن بلكين إلى نهج أسلوب المراوغة ، حين بعث هذا الأخير إلى باديس بأخية ابراهيم رسولا ينقل إليه اعتذاره على ما أقدم عليه ، و يذكّره بالجهود العسكرية التي بذلها في سبيل

---

(1)–بورويبة: المرجع السابق ،ص21.

(2)–ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص228 ، النويري: المصدر السابق ، ج24 ، ص107.

(3)–بورويبة رشيد: المرجع السابق ،ص26 و ما بعدها.

(4)–أنظر: النويري: المصدر السابق ، ج24 ، ص107.

(5)–بورويبة: المرجع السابق ، ص34.

دولة بني زيري ، ثم أعقب فعله هذا برسائل يطلب من خلالها الأمن و الأمان من باديس[1]. لكن هذه الاجراءات الوقائية التي اتّخذها حماد لم تؤت أكلها ،و لم يُتوصّل من ورائها إلى حلّ لقضية رفع الحصار ، الذي بقي على حاله.

بيد أنّ الحقيقة التي لم يعتريها أيّ شك ، هي أنّ هذا السلوك من حماد ما كان يعني بتاتا التخلّي عن طموحاته الانفصالية أو التوسعية ، بل كان أسلوبا حربيا و خدعة تكتيكية لكسب الوقت و الحيلة لرفع الحصار ، الذي أوشك على دفن تلك الطموحات في مهدها ، في الوقت الذي لا تزال كفة ميزان القوة في صالح العسكرية الزيرية. هذا من جهة ، و من جهة أخرى قد يكون هذا النهج السِّلمي الحمادي طريقا للوصول إلى المبتغى بعيدا عن الحرب ، و لو إلى حين.

و لا تفوتنا في هذا السياق الاشارة إلى أنّ حماد قد نهج تكتيكا آخر عندما تخلّى عن ولائه للفاطميين الشيعة بالقاهرة و اعلان خضوعه للعباسيين السنة ببغداد[2]. و هو تكتيك كان على كل قائد محنّك أن يلجأ إليه في ظل الظروف التي يمرّ بها في سبيل تحقيق فكرة الانفصال ؛ ذلك أن الدولة الزيرية كانت تدين بالولاء للبلاط الشيعي بالقاهرة و عليه فان الشيعة بالقاهرة ربما لن يدّخروا أيّ جهد في سبيل مدّ يد العون لأصحاب الولاء من صنهاجة لإعادة الأمور إلى نصابها ، و منع أيّ محاولة للانفصال و الانشقاق ببلاد المغرب تهدّد مستقبل المنطقة ، هذه الأخيرة التي قد تضيع من يدها ، و تفقد عندئذ الولاء للمذهب الشيعي بها. وعليه سارع حماد بن بلكين إلى ربط جسور الصلة مع الخلافة العباسية ، تعبيرا عن سياسته الانفصالية عن الكيان الزيري الأمّ سياسةً و مذهبًا، وايجاداً لنصيرٍ يختلف في المذهب عمّا يواليه بنو عمومته ، بإقراره اتّباع المذهب

(1)-المرجع نفسه ، ص27

(2)-بورويبة: المرجع السابق ، ص21-22 ، موسى هيصام : المرجع السابق ، ص84.

السني والولاء للخلافة العباسية، كإجراء سياسي ومذهبي، لتحقيق فكرة الانفصال ، خصوصا وأن الهدف ما زال لم يُحقق بعد.

وإن كانت وفاة باديس بن المنصور لم تكن تعني تحقيق طموح الانفصال ونهاية الحرب الحمادية الزيرية فإن حادثة الوفاة قد أضعفت ولو نسبيا من النشاط الحربي الزيري ضد بني حماد و ذلك في ظل القيادة الجديدة المشرفة على شؤون بني زيري و المتمثلة في المعز بن باديس (406 -454ه /1016 -1062م) حين تمّ رفع الحصار عن القلعة و رجع الجيش الزيري إلى افريقية[1].

بيد أنّ ذلك ما كان يعني رفع الحرب بين الطرفين ، حيث تجدّد النشاط الحربي الزيري الحمادي مع مباشرة ملك الدولة الجديد شؤون البلاد ، و هو ما أورده ابن عذاري في سياقه لأحداث سنة 408ه ، حين يقول: "وفي سنة 408 كانت حروب عظيمة بين عساكر شرف الدولة المعز ابن باديس و بين عساكر حماد ، و ذلك شيء يطول ذكره"[2]. حيث كانت الحملة التي خرج فيها المعز بن باديس إلى حماد سنة 408ه /1017م و أثخن في الجيش الحمادي، كما تمكن من أسر ابراهيم أخو حماد ، في الوقت الذي نجا حماد بجروحه من المعركة بعد الهزيمة[3].

وفي ظل هذه الأحداث العسكرية التي لم تكن لصالح حماد بن بلكين، يلجأ هذا الأخير إلى اجراء وقائي أخر كان يرى فيه المخرج الأفضل لما أشكل عليه و أعضل، حين آثر الخيار السياسي كحل استعجالي بديل عن العمل العسكري -عساه يبلغ المراد ويحقق هدفه المنشود بالانفصال عن الأسرة الصنهاجية- الذي تجلى من خلال الرسالة التي حملها رسوله إلى المعز تحمل بين

(1)-ابن عذاري: المصدر السابق ، ج1 ، ص266 -268.

(2)-المصدر نفسه ، ص269.

(3)- ابن الأثير: المصدر السابق ، مج8 ، ص89.

أحشائها اعتذاراته على ما بدر منه من أخطاء في حق أبناء العمومة ، راجيا عفوه لما تحمله صلة الرحم من قرابة و رحمة. و كان رد المعز بالإيجاب شريطة أن يعبّر حماد عن صدق نواياه بأن يرسل إلى المعز ابنه القائد بن حماد ، فأرسل إليه حماد ابنه كما طلب بعدما اشترط هو الآخر أن لا يبعث به إلا بعد أن يصله أخوه ابراهيم و معه عهد المعز على ما ينوي [1]. فكان عندئذ الصلح بين طرفي الصراع داخل الأسرة الواحدة ، و هو ما يعبّر عنه ابن الأثير بقوله: "وعاد إلى أبيه في شهر رمضان و رضي الصلح -يقصد المعز- و حلف عليه و استقرت الأمور بينهما وتصاهرا"[2]. و توّج هذا الصلح و تلك المفاوضات باستقلال حماد بن بلكين ببلاد المغرب الأوسط سنة 408ه / 1017م ،و ما يفتح من بلاد بالجهة الغربية[3].

وبذلك أصبحت فكرة الانفصال أمرا واقعا حيث انقسم البيت الزيري على نفسه ، إذ استأثر بنو حماد بالقسم الأوسط من بلاد المغرب و اكتفى بنو زيري بقسمه الأدنى. و صفوة القول ، فقد جسّد بنو حماد من خلال السياسة التي اتّبعها الأمير حماد لتحقيق ذلك الانجاز ، استراتيجية عسكرية محكمة جمعت بين الحيلة وحرب الخدعة و الدهاء الحربي ، سواء في حرب المعارك أو في حرب السياسة ، وإن طغى على نهجه العسكري في هذه المرحلة –كما أسلفنا- حرب الدفاع أكثر من حرب الهجوم.

ب- معركة شلف، استراتيجية نقل ميادين الحرب خارج الديار :

معركة شلف، من الوقائع التي جسّدت فصول الصراع الحمادي الزيري قبل الانفصال الأسري والاستقلال الحمادي بالمغرب الأوسط. وكان

(1)-أنظر: ابن أبي دينار القيرواني: المصدر السابق ،ص82.

(2)-ابن الأثير: المصدر السابق ، مج8 ، ص89.

(3)-بورويبة: المرجع السابق ، ص34.

من الأسباب الرئيسة لهذه المعركة رفض حماد بن بلكين التنازل عن قسنطينة و تيجس والقصر الافريقي بناء على مطلب باديس بن المنصور القاضي بالتنازل عن هذه الممتلكات لولي عهده ، وكذا فشل سياسة التفاوض بين باديس وعمه حماد و عدم الوصول إلى حل لقضية الصراع الأسري الصنهاجي.

وبدراسة التفاصيل العسكرية التي مهّدت للصدام بين الطرفين نقف على جانب من الدهاء الحربي الذي تحلى به القائد حماد ،ذلك أنّه رأى ضرورة المسارعة بالهجوم عملا بالقاعدة الحربية التي تقول أنّ "أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم" حتى يقطع السبيل أمام أي محاولة زيرية لكسر طموح الانفصال وعرقلة فاعلية العمل لتحقيقها؛ إذ بادر بالزحف على ملك ابن أخيه بالمغرب الأدنى حين قصد مدينة باجة واقتحمها[1]. و هذا الاقتحام الجريء تكتيك حربي فذ من قائد عسكري محنك ، رام من ورائه حماد توسيع مجال الممتلكات الزيرية الضائعة من المملكة، واضعاف همّة ملكها باديس في سياسته الاسترجاعية لهذه الممتلكات، أمام قوة حماد المتزايدة. ومنه قد يقتصر النشاط الزيري على استرجاع الممتلكات الواقعة بمنطقة المغرب الأدنى وغضّ الطرف عن ما بيد عمه حماد بالمغرب الأوسط وما والاه غربا؛ ويخمد بذلك نار سياسة الاسترجاع الزيري للممتلكات أمام الطموح الحمادي المتزايد لتحقيق فكرة الانفصال.

ولعلّنا لم نجانب الصواب ان اعتبرنا أنّ هذا العمل العسكري يندرج ربما ضمن خدعة حربية حمادية لصرف الحملة العسكرية الزيرية المحتملة على القلعة الحمادية بعد عدم امتثال حماد لطلب ابن أخيه باديس بالتنازل عن الممتلكات المذكورة سلفا، وحصر النشاط الحربي الاسترجاعي الزيري ضمن مجال المغرب

(1)-ابن الأثير: المصدر السابق ، مج8 ، ص86.

الأدنى، ولما لا لتبديد فكرة الاسترجاع بتاتا والخضوع للأمر الواقع، والرضى بالانفصال الحمادي عن الكيان الأم.

بيد أنّ هذه الحيلة العسكرية لم تنطل على باديس بن المنصور، ذلك أن هذا الأخير زحف بجيشه نحو المغرب الأوسط مركز ملك حماد سنة 405هـ/1014م، وأضحى على مشارف القلعة –حصن حماد المنيع– واستعصى عليه اقتحامها. أمّا حماد فقد آثر في هذا الوقت التراجع نحو الجهة الغربية بضواحي معسكر سعيا منه لدفع الخطر أو ابعاده عن قلعته و عاصمته.

وعلى الضفة الغربية من وادي شلف كان حماد قد حشد الحشود من زناتة إلى صفه واستدرج بني زيري إلى موضع المعركة الذي رامه. ولعلّ ما ساقه ابن عذاري في هذا المضمار بشأن ما كان من أمر حملة باديس في طريقها إلى الموضع الذي يرابط فيه حماد، وما كان منه من حيطة وحذر مخافة الوقوع في كمين محتمل من طرف حماد، كما جاء على لسانه قائلا: "فبات على تحفظ واحتراس[1] ولما كان في غد نزوله، برز في عساكره، ومشى عليها، ورتبها، وأقام كل قائد من قواده في مركزه"[2]. لكن حماد وعلى الرغم من الاعداد المحكم لهذه الموقعة والترتيب المسبق لها فإن النصر جانبه وكان من حليف باديس، وذلك في أواخر ذي القعدة من سنة 406هـ/ 1015م ، وانسحب إلى القلعة للاحتماء بأسوارها كما مر بنا.

وهنا يأخذنا حماد في اطار سياسته الحربية في موقعة شلف إلى حدّ القول: أنّه ورغم هزيمة حماد في المعركة إلاّ أنّه انتصر من حيث ما تزال فكرة الانفصال حية، حين نجح بحيله وخدعه الحربية في أن يخوض المعارك ضد خصومه في الموضع الذي يشاء وفي الوقت الذي يحدّده. كما نجح في تشتيت الجهود

(1)–يقصد باديس بن المنصور عشية الصدام بموقعة شلف.

(2)–ابن عذاري: المصدر السابق ، ج1 ، ص263.

العسكرية الزيرية الرامية إلى استرجاع الممتلكات ، و قتل فكرة الانفصال قبل أن ترى نور الحياة ، و سنده الرئيس في ذلك ولاء الجند له و حصنه المنيع قلعته و حنكته العسكرية و دهائه الحربي.

ج- السياسة العسكرية الحمادية تجاه القبائل الهلالية:

بعد فشل المعز بن باديس في مدافعة القبائل الهلالية بكل ما أوتي من قوة و وسيلة تعاظم شأن هذه الأخيرة في بلاد المغرب ، و ازداد نشاطها التخريبي بأراضيه ، خصوصا بعد انتقال المعز إلى المهدية يروم التحصّن بأسوارها سنة 449ه /1057م ، فاسحا المجال أمام هذه القبائل للظفر بالقيروان و تخريب الممتلكات و العمران. و لم تكتف هذه القبائل الهلالية بما ملكته من أراضي بني زيري بالمغرب الأدنى بل واصلت سيرها نحو المغرب الأوسط و دخلت هذه البلاد الأخيرة في عهد الأمير الحمادي بلكين بن محمد (الذي تولى عرش بني حماد سنة 447هـ/1055م)[1]. فهل وقع الصدام بين الحماديين و العرب شأن الذي حدث بالمغرب الأدنى أم أنّ عين السياسة العسكرية الحمادية رأت غير ذلك؟

في الحقيقة آثر الأمير الحمادي بلكين بن محمد عدم الاصطدام بهذه القبائل الهلالية، مخافة أن يحلّ ببلاده ما طال أرض أبناء العمومة من نهب وفساد وتخريب. بيد أنّه كان يدرك في نفس الوقت ؛ أنّ هذا الاجراء لا يعني أن بلاده في منأى عن الخطر الهلالي. وهو ما دفعه إلى سلوك سبيل الخدع الحربية في طريقة تعامله مع هذه القبائل العربية ، ذلك أنّه عمد إلى خدعة حربية تقتضي ضرب "العدو بالعدو"، حين أوعز إلى زناتة بمدافعة هذه القبائل الهلالية[2]، خصوصا و أنّ زناتة تخاف أن يحلّ بها ما حلّ بإخوانهم الزناتيين بأرض المغرب

(1)-ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص27.

(2)-بورويبة: المرجع السابق ، ص55.

الأدنى؛ الذين طُردوا من أراضيهم من طرف القبائل الهلالية. فكانت بين زناتة المغرب الأوسط والقبائل الهلالية حسبما يفصّل فيه ابن خلدون حروب شديدة اجتمع لها الزناتيون دفاعا عن منطقة الزاب والمغرب الأوسط، بيد أنّهم انهزموا أمام القبائل الهلالية الذين أزاحوهم عن الزاب وما يليه من افريقية[1]. فانحصرت زناتة إلى الصحراء و استقرت القبائل الهلالية بمنطقة الزاب[2].

بانهزام زناتة و فشلها في مجابهة بني هلال عمد بلكين بن محمد الحمادي إلى تكتيك حربي آخر -وقائي هذه المرة- تمثّل في خيار "الصلح خير" عندما عقد الصلح مع العرب و تفادي من خلاله الصدام العسكري مع بطونها، كما سعى لمنعها من التقدّم نحو الشمال مركز السلطة الحمادية من جهة أخرى. وكانت بنود نصّ هذا الصلح تنصّ على احتفاظ بني حماد بالمدن الشمالية وترك الأرياف لعرب بني هلال[3].

وبهذا نلحظ أن الحماديين خاضوا حربهم ضد القبائل العربية باستعمال البطون الزناتية كوسيلة ومادة لجس النبض وأخذ عيّنة عن مدى القوة العسكرية الهلالية، ولما أيقنوا من قوة هذه القبائل ركنوا إلى السلم وآثروا الصلح والاحتفاظ بالجزء بدل خسارة الكل. وان كان بنو حماد يكفيهم ما حل ببلاد أبناء عمومتهم من بني زيري بعد موقعة حيدران سنة 443هـ/1052م، وما أعقبها من نهب وتخريب للعمران وافساد بالأراضي والممتلكات ومن سفك للدماء، ليدركوا قوة هذه القبائل الهلالية ومدى اضرارها بالبلاد، وليس حتى تنهزم زناتة التي دفعوا بها لمجابهتا فحسب[4].

---

(1)- ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص27.

(2)-بورويبة: المرجع السابق ، ص55.

(3)-ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص27.

(4)-للتفصيل بشأن الموقعة بين العرب الهلالية وملوك بني زيري، أنظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص21، ابن أبي دينار القيرواني: المصدر السابق، ص84، النويري: المصدر السابق، ج24، ص119.

ونضيف إلى ما سبق أنّ السياسة العسكرية الحمادية كانت تقتضي أيضا عدم الدخول في صراع متعدد الجبهات ، ذلك أنّهم آثروا الصلح مع العرب، وانطلقوا في حربهم ضد زناتة سنة 450ه /1058-1059م بقيادة بلكين بن محمد ، الذي انتصر في حربه هذه. بل و فوق ذلك نجد هذا الأمير الحمادي ينجح في الاستعانة ببطنين من بطون العرب الهلالية (الأثبج و عدي) في حربه ضد زناتة. و يُفلح بذلك الحماديون في اختبارهم الأول للاستعانة بالقبائل الهلالية في حروبهم ضد أعدائهم. و هي التجربة الفاشلة التي مرّ بها المعز بن باديس حين أقدم على التحالف مع بني هلال لحرب زناتة و بني حماد من صنهاجة و ما ساقه لبلاده من عواقب وخيمة أضعفتها أيّما اضعاف.

د- موقعة سبيبة ، بين سياسة التحالف و التحالف المضاد:

موقعة سبيبة من المعارك الكبيرة التي خاضها الجيش الحمادي سنة 457هـ /1065م في عهد الأمير الناصر بن علناس ثاني أعظم ملوك هذه الدولة ضد الجيوش الزيرية. و لقد تزامن ذلك مع توغّل العناصر العربية الهلالية بأرض المغرب الأوسط. وتُجسّد هذه الموقعة فصلا من فصول الصراع الحمادي الزيري، ولكن هذه المرة باشراك طرف ثالث كخصم وحليف للطرفين في آن واحد.

وما دمنا لسنا بصدد الخوض في تفاصيل أسبابها ونتائجها التي أفاض بشأنها المؤرخون والدارسون المحدثون[1]، فإننا سنسعى في ظل مجريات أحداثها للوقوف على التكتيك العسكري ، الذي كان ديدن طرفيها ابتغاءً للنصر واتقاءً لشرّ الهزيمة. فكانت المحطة الأولى التي لفتت انتباهنا هي: أن الناصر الحمادي

(1)-أنظر: ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص21 ، ابن أبي دينار القيرواني: المصدر السابق ، ص84 ، النويري: المصدر السابق ، ج24 ، ص119 ، عبد الحليم عويس :المرجع السابق ،ص98.

حاول أن يستغلّ الظروف الصعبة التي تمرّ بها الدولة الزيرية بعد الذي حلّ ببلادها عقب الدخول العربي الهلالي ، وما طال أرضها من نهب و تخريب وافساد أضعف الدولة و حصر ملكها في المناطق الساحلية ، على غرار العاصمة المهدية ، لتوسيع ملكه نحو الشرق و توحيد ممتلكات الأسرة الصنهاجية تحت راية بني حماد. و هو ما وقفنا عليه من خلال رواية ابن الأثير التي يذكر فيها "وكذلك ما كان بين القائد بن حماد و بين المعز ، و كان القائد يضمر الغدر وخلع طاعة المعز و العجز يمنعه من ذلك فلما رأى قوة العرب و ما نال المعز منهم خلع الطاعة و استبدّ بالبلاد و بعده ولده محسن و بعده ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد و بعده ابن عمه الناصر بن علناس بن محمد بن حماد و كل منهم متحصن بالقلعة"[1].

وفي اطار مسعى الناصر للتوسّع على حساب مملكة بني زيري وحصار عاصمتهم المهدية كان عليه أن يُعدّ العدة لذلك من حيث جمع السلاح والمؤونة الكافية، واعداد الجيوش وتنظيمها وشحن هممها. وحتى يضمن النصر في حملته هذه، أهتدى الناصر إلى سبيل الحيلة والخديعة عندما رأى أن يتخذّ له حليفا عسكريا قويّا يضمّ بطونا من العرب الهلالية (الأثبج وعدي) والقبائل الزناتية[2]. وفي الوقت الذي كان الناصر يظنّ أن الأمور تسير في صالحه كانت المؤامرة أو الخديعة المضادة تُنسج خيوطها في الظلام و هو لا يدري ، ذلك أنّ تميم بن المعز الزيري (454-501هـ /1062-1108م) ما إن علم بما يُدبر بشأن ملكه في بلاط حكم الناصر الحمادي حتى سارع هو الآخر إلى الحيلة وحسن التدبير لقلب موازين المعركة لصالحه قبل أن يخوضها ؛ إذ تحالف مع زغبة و رياح و سليم من قبائل العرب. وكسب عندئذ طرفا يعادل به كفة المعركة. ثم

(1)-ابن الأثير: المصدر السابق ، مج8 ، ص372.

(2)-المصدر نفسه، ص372.

سعى إلى ترجيح كفتها لصالحه عندما استدعى أمراء قبيلة رياح وأفلح في اقناعهم بالتحالف معه ضد بني حماد ووعدهم بحظّهم الوفير في الغنائم والأسلاب[1].

وحتى يوثّق تميم ميثاق التحالف مع العرب عمد إلى حيلة صوّر لهم من خلالها أنّه و في ظل تعاظم شأن قوة الناصر فانّه الخطر الداهم لا ريب على مستقبلهم ببلاد المغرب خصوصا ان انتصر في معركته، أمّا ملك بني زيري فأسوار المهدية الحصينة كفيلة بحمايته[2]. وعلى هذا الأساس راسلت القبائل الهلالية المتحالفة معه قومهم المتحالفون مع الناصر الحمادي، وقبّحوا لهم أمـــر تحالفهم هذا فأجابهم قومهم إلى ذلك نظير ثلث الغنيمة، واتفقوا على الخطة التي يهزمون بها الناصر حين يقع الصدام بين طرفي الصراع[3]. ولم يكتف تميم بتحالفه مع العرب بل سعى أيضا إلى خرق تحالف الناصر من العناصر الزناتية بإقناع زعيمها المعز بن زيري بن عطية المغراوي حليف الناصر بن علناس بالتحالف معه بأن يتظاهر بالانهزام حينما يلتحم القتال في قلب المعركة مع الناصر على أن ينال ثلث الغنيمة بعد الهزيمة[4].

وعندما التقى الجمعان في موقعة سبيبة كانت الضربة موجعة لجيش الناصر الذي انهزم هزيمة نكراء أمام جيش تميم بما ضمّ من أحلافه وأحلاف الناصر الغادرين به ، ذلك أن الأمور سارت حسب المؤامرة المدبّرة والتحالف السري بين العرب و تميم على الغدر بالناصر. و كان من حظ هذا الأخير أن نجا بنفسه

(1)-ابن الأثير: المصدر السابق ، مج8 ، ص373.

(2)-النويري: المصدر السابق ، ج24 ، ص123.

(3)-ابن الأثير: المصدر السابق ، مج8 ، ص373.

(4)-ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص27.

بعد القضاء المبرم على جيشه و النهب التام لمعسكره بما حوى ، في الوقت الذي حظيت العرب و زناتة بالغنيمة ، و اكتفى تميم بن المعز بنشوة النصر[1].

و من خلال هذا الفصل من الصراع الحمادي الزيري في موقعة سبيبة يفشل الناصر بن علناس فشلا ذريعا في تخطيطه لتحقيق طموحه التوسعي بأرض المغرب الأدنى ، و انخدع الناصر في حربه من حيث سعى إلى حرب الخديعة ، و أدرك الناصر أيضا قصر نظره لما خطّط له و سوء تدبيره في ما أقدم عليه من تحالف. فعلى الرغم من الحنكة و الدهاء السياسي و العسكري الذي عُرف به إلاّ أنّ الحيلة الحربية التي اتّبعها تميم بن المعز أو "حرب الخديعة المضادة" قد انطلت على الناصر و لم يدركها إلا بعد أن فقد جيشه و كان قد فات الأوان.

٥- العاصمة الحمادية البديلة :

كان من أهم الأحداث التاريخية التي أعقبت انهزام الناصر بن علناس في موقعة سبيبة ازدياد النشاط التخريبي للقبائل الهلالية بضواحي القلعة. و أمام عجز الناصر لوضع حدّ لأعمال النهب و التخريب و الافساد و قطع السابلة التي طالت بلاده من طرف العرب الهلالية ، و عدمه الحيلة لتجنيب عاصمة دولته القلعة عواقب ذلك النشاط ، رأى الناصر أن يتخذّ موضعا بديلا لعاصمة دولته بعيد عن نشاط بني هلال و في منأى عن ضرباتهم ، فوقع اختياره على موضع بجاية الساحلية ، و هناك شيّد مدينته و عاصمة دولته بعد القلعة بجاية ،و انتقل إليها سنة661هـ /1068م[2].

و إذا كان من الأسباب الرئيسة لبناء الناصر مدينة بجاية و اتّخاذها عاصمة لدولته بديلة عن القلعة -كما أسلفنا- الابتعاد عن مجال نشاط القبائل الهلالية

(1)-ابن عذاري: المصدر السابق ، ج1 ، ص299.

(2)-ابن خلدون: المصدر السابق ، ج6 ، ص232.

المنتشرة بضواحي القلعة ، فان الاستراتيجية العسكرية للناصر الحمادي كانت تقتضي أيضا حماية هذه العاصمة الجديدة من خطر هذه القبائل الهلالية ، التي قد تلحقه إلى بجاية على الرغم من حصانة موضعها و صعوبة المسالك إليها و كثرة الحواجز الجبلية[1]. إذ نعتقد أن الناصر الحمادي لجأ إلى أسلوب الحيلة و الخديعة أو "الاستراتيجية الوقائية" من خطر العرب الهلالية ؛ ذلك أن الناصر سعى باستراتيجيته هذه إلى أن تبقى القبائل الهلالية مستقرة بالمناطق الجنوبية من دولته و تمركز نشاطها هناك ، بعيدا عن العاصمة بجاية.

و لعل ذلك يتجلى من خلال الابقاء على القلعة كعاصمة ثانية أو ثانوية للدولة الحمادية عندما لم تغادرها الأسرة الحاكمة بشكل نهائي حتى عهد المنصور (تولى العرش سنة 481ه /1088م) الذي مكث بها سنتين ليغادرها سنة 483ه /1090 -1091م. و كان قبله الناصر يتردّد بين القلعة و بجاية كما ترك بها حامية حمادية لتأمينها و حماية ساكنيها ، حتى تكون القلعة من جهة حصنا متقدّما يحمي الواجهة الجنوبية للعاصمة السياسية الجديدة ، و تنشغل هذه القبائل بشنّ غاراتها ضد الحماديين بضواحي القلعة و لا تفكّر في السير نحو مقرّ ملك الأسرة الحاكمة ببجاية.

و عليه ، فقد نجح الناصر بسياسته هذه في منع القبائل الهلالية من التوغل شمالا –وان كانت هذه القبائل لا تحبذ مثل تلك المواضع موطنا للاستقرار- و اقتصر نشاطها على ضواحي القلعة ، حتى أنّنا نجد القلعة الحمادية تتعرض في عهد الأمير الحمادي الثامن العزيز بن المنصور (500-515هـ/1106-1121م) لغارة هلالية كان من نتائجها تخريب عمران المدينة[2] سنة 512ه

(1)-حول الموقع الحصين الذي يكتسيه موضع بجاية ، أنظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص232.

(2)-ابن خلدون: العبر، ح7 ، ص49.

/1118م ، في الوقت الذي لم نقف بين ثنايا المصادر التاريخية التي حوزناها على أيّ رواية بشأن أيّ هجوم عسكري هلالي على العاصمة الحمادية بجاية.

و- الحرب الحمادية الزناتية و استراتيجية الاغراء المادي:

في ظل الحرب الحمادية المتعددة الجبهات ، نختار هذه المرة أنموذجا لحربها ضد خصومها التقليديين من عناصر زناتة المتحالف بطونها ضد الكيان الحمادي و ذلك في الجهة الغربية من المملكة ، في ظل سعي زناتة الحثيث للريادة السياسية ببلاد المغرب خصوصا بالقسم الغربي منه و محاولة الاستئثار بهذا الجزء منذ عهد حماد بن بلكين. و لقد اتّخذت هذه القبائل الزناتية من مدينة فاس مركزا للانطلاق في غاراتها على الأقاليم الحمادية في جزئها الغربي[1]. و هو السلوك الذي يعدّ تمرّدا صريحا على ملك الدولة الحمادية صاحبة السلطة بالمنطقة و تعدّيا صارخا على ممتلكاتها. و عليه رأت السلطة الحمادية من الضروري المسارعة في كل مرة لكبح هذا الجموح من خلال حملاتها على معاقل زناتة أو المناطق التي تُغير عليها أو يتمرّد أهاليها.

و لقد كانت الاستراتيجية الحربية الزناتية في كثير من الأحيان ما تتّخذ من فترات الصراع الحمادي الزيري و توتر العلاقات بين الطرفين وقتا مناسبا لشنّ حملاتها و اعلان تمردها ، حتى يمكنها بلوغ مآربها ، في ظل انشغال الجيوش الحمادية بمهمة التوسع بالجهة الشرقية. و من الأمثلة على ذلك المعركة التي قادتها بطون زناتة المتحالفة بالقسم الغربي من المملكة الحمادية ، و المتمثّل في الصدام العسكري الذي وقع بالقرب من فاس ، أين اتّبع الحماديون فيه خطة عسكرية أو خدعة حربية يمكن أن نسميها "حرب الاغراء المالي" لاستمالة العناصر الزناتية و فضّ تحالفات بطونها المنعقدة على قائدها زيري بن عطية المغراوي ، و ذلك عندما قام الأمير الحمادي القائد بن حماد سرّا بتسريب

(1)-أنظر ، بورويبة: المرجع السابق ، ص56.

الأموال بين زعماء زناتة[1]. و قد نجح من حيث قبلوا هذه الرشاوى و انفضوا من حول زعيمهم زيري. و هي الخطة المحكمة التي مكّنت القائد بن حماد من هزيمة زيري و اجباره على الاستسلام و طلب الصلح و الطاعة ، و انكفأ هذا الأخير نحو عاصمته فاس بالمغرب الأقصى[2].

و لم يلجأ الحماديون إلى حرب الخديعة عن طريق استمالة الطرف الخصم مع زناتة الجهة الغربية في حملة الأمير الحمادي القائد فحسب ، بل كانت هذه الخدعة الحربية أيضا سبيل الناصر بن علناس ضد خصومه من زناتة الجهة الشرقية بطرابلس بقيادة المستنصر بن خزرون الزناتي صاحب طرابلس الغرب. و ذلك حين أغار هذا الأخير على المسيلة و أشير و أفلح في اقتحامهما[3] ، مستغلا تحالفه مع العرب من جهة ، و الوقع السيئ الذي طبعته هزيمة الناصر بن علناس في موقعة سبيبة على سياسته العسكرية. بيد أنّ الناصر بن علناس استطاع جمع قواته من جديد لكسر شوكة المتطاولين على ممتلكاته شرقا و غربا. و هو ما مكّنه من ضرب قوة المستنصر و ارغامه على الانحصار نحو البيداء[4].

و أمام الغارات المتكرّرة من طرف المستنصر على أراضي الحماديين كانت الخديعة هي ملاذ الناصر لكسر هذه الشوكة عندما أغراه بإقطاعه ضواحي الزاب لشراء أمن مملكته. و هي الحيلة التي انطلت على المستنصر بن خزرون حين قبل العرض ، بيد أنّ الناصر كان يضمر استئصال الداء من جذوره حتى لا يستشري من جديد في جسم مملكته ، إذ أوعز إلى عامله على بسكرة عروس

(1)-ابن خلدون: العبر ، ح7 ، ص49.
(2)-موسى هيصام : المرجع السابق ، ص121.
(3)-بورويبة: المرجع السابق ، ص71.
(4)-ابن خلدون: العبر ، ح7 ، ص59.

بن هندي بالتكفل بالمهمة. و قد نجح هذا الأخير فيما أوكل إليه ، و قتل المستنصر و أرسل برأسه إلى الناصر سنة 460ه /1067 -1068م بعد مكيدة دبرها للفتك به[1].

د- صراع بني حماد مع المرابطين و سياسة التحالف:

كان من أبرز أوجه الصراع الحمادي مع المرابطين وقعة تلمسان سنة 496ه /1102 -1103م ، التي أعقبت مسيرة النزاع بين الطرفين ، بعدما رام قادة دولة الملثمين توسيع حدود دولتهم نحو الجهة الشرقية على حساب ملك بني حماد ، الأمر الذي حتّم على الأمراء الحماديين صدّ ذلك الزحف و تأمين حدودهم من تلك الجهة ، خصوصا بعد الحملات المتكررة التي قادها الملثمون على أراضيهم على غرار تلمسان و جزائر بني مزغنة و أشير ،و كانت آخرها في سنة 495ه /1101م[2].

و لقد آثرنا هذه المعركة عن غيرها من مظاهر الصدام بين الطرفين -على الرغم من أنّ تقدم المرابطين كان في وقت مبكر على حساب أراضي بني حماد ، إذ سيطروا على قسم معتبر من ممتلكات الحماديين بالقسم الغربي[3] منذ سنة 454ه 1062م ، ثم سنة 472ه /1079م أين دخلوا وهران ، شلف وتنس و وصلوا جزائر بني مزغنة سنة 475ه /1082م- ذلك أن هذه المعركة تعدّ انتصارا هامّا للعسكرية الحمادية على الجيوش المرابطية عندما تمادي قادة هذه الأخيرة في التعدي على الملكية الحمادية ، و أنموذجا للتكتيك الحربي الحمادي في ذلك المجال.

---

(1)-بورويبة: المرجع السابق ، ص72.

(2)-ابن خلدون: العبر ، ح7 ، ص62.

(3)-بورويبة: المرجع السابق ، ص75 و ما بعدها.

و عليه، فلو رجعنا إلى سياسة المرابطين خلال تعدّيهم على ممتلكات بني حماد لوقفنا على أنّهم استغلّوا الظروف العصيبة التي مرّت بها الدولة في بعض الفترات على غرار صراعها مع بني زيري و أحلافهم من العرب بالجهة الشرقية من جهة و الصراع مع زناتة بالشرق والغرب من حدودها من جهة أخرى ، خصوصا عندما اتّبعت زناتة استراتيجية التحالف ضد الحماديين ، حينا مع صنهاجة بني زيري و مع الملثمين أحيانا أخرى ، لتحقيق طموحاتها. و في ظل هذا كان ديدن الأمير الحمادي المنصور بن الناصر منذ السنوات الأولى من اعتلائه عرش الدولة هو تصفية الوجود المرابطي بأراضي مملكته ، و قد أدرك ذلك حقّا بانتصاره عليهم بمعركة تلمسان في سنة 496ه /1102 - 1103م[1].

و كان من العوامل التي مكّنت له في هذا النصر ، التكتيك الحربي الذي اتّبعه. و هو التكتيك الذي يمكننا أن نصطلح عليه "الحرب المضادة" ، و ذلك حين استغلّ المنصور هو الأخر ظروف انشغال المرابطين بالحرب في الأندلس عند عبورهم الثاني إليها سنة 496ه /1102 -1103م استجابة لنداء الاستغاثة من طرف ملوك الأندلس أثناء عجزهم عن مدافعة هجومات ملك قشتالة، وكذا استغلاله لظروف الوعكة الصحية التي طالت أمير المرابطين يوسف بن تاشفين قبيل وفاته سنة 500ه /1106م[2].

وبذلك قدّر المنصور الحمادي أنّها الفرصة السانّحة لضرب المرابطين واسترجاع أقاليمه المسلوبة من طرفهم ، فخرج إليهم بجيش ضمّ قوى التحالف

---

(1)-عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص144.

(2)-حول حياة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين و سنة الوفاة ، أنظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان ، مج7 ، تح ، إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1970 ، ص 112 و ما بعدها

مع العرب الهلالية وزناتة قوامه 20 ألف مقاتل في شوال من سنة 496هـ/1102م. واستطاع المنصور بخطته العسكرية الحكيمة أن يحقّق نصرا كبيرا، حيث بعث بجزء من جيشه لتمثيل الفصل الأول من المعركة الذي اصطدم بقوات المرابطين ، و أتمّ الفصل الباقي هو بنفسه بما تبقى معه من جيشه بمباغتة مؤخرة جيش المرابطين التي يقودها تاشفين بن يغمر بضواحي تلمسان. ولقد كان للمنصور ما أراد، إذ نجح بالجزء الثاني من جيشه ضرب جيش المرابطين من مؤخرته وتبديد شمله. وانسحبت الفلول المتبقية من الجيش المرابطي من ميادين القتال، ودخل المنصور تلمسان واستباحها. ووضع بذلك حدّا لتهديدات المرابطين من جهة حدوده الغربية[1].

خاتمة:

وفي ختام دراستنا هذه نُشير إلى أنّنا وقفنا على بعض النماذج من تكتيك "حرب الخديعة" التي اتّبعتها الدولة الحمادية في سياستها العسكرية ضدّ خصومها من بني العمومة وقبائل بني هلال وعناصر زناتة وضدّ دولة المرابطين. كما يستلزم علينا الاشارة أيضا إلى أن هذا التكتيك الحربي الحمادي لا يقتصر على ما مرّ بنا بين ثنايا هذه الدراسة ، بل هناك نماذج أخرى عدّة جسّدت حرب الخديعة ضمن السياسة العسكرية الحمادية في خضم صراعها الطويل مع أطراف الخصومة السالف ذكرهم و حتى مع نصارى النورمان من جهة الشمال و الشمال الشرقي. و لعلّ ما يمكن أن نسوقه في اطار النتائج المُتوصّل إليها ما نوجزه فيما يأتي تبعا:

(1)-موسى هيصام : المرجع السابق ، ص122-123.

- أنّ حرب الخديعة ، هي من التكتيكات الحربية المشروعة التي سمحت بها الشريعة الاسلامية في الحروب ضدّ ملّة الكفر و في الدفاع عن الممتلكات من العدو الغازي.

- كان التكتيك الحربي الذي انتهجه حماد استراتيجية ناجعة إلى حدّ بعيد كيف لا و قد افتكّ من خلالها حماد استقلاله بالمغرب الأوسط بنفسه ، حين استطاع أن يكسب ولاء الجند الذين أغدق عليهم بالعطايا وأغراهم بالأموال، وأن يُحسن مرواغة و خداع ملوك بني زيري بالخضوع والاذعان لهم حينا والهجوم على أراضيهم في أحيان أخرى. وبذلك استطاع حماد حين رفع التحدّي ضدّ الكيان الزيري القائم أن يؤسّس لدولة، ويضع لها قواعد دولة قوية حكمت المغرب الاوسط لمدة من الزمن.

- جسّدت السياسة التي اتّبعها أمراء بني حماد لتثبيت دعائم دولتهم استراتيجية عسكرية جمعت بين الحرب الدفاعية والهجومية وبين أسلوب الكر والفر تبعا لمتطلبات المرحلة الراهنة و ما تقتضيه من تكتيك، وكذا لقوة الخصم وما تتطلب من استراتيجية؛ إذ كانت الحرب الدفاعية الخيار الأمثل قبل التأسيس وبناء الدولة، و أضحت حرب الهجوم ضرورة ملحّة لكسر شوكة الطامعين في ملك بني حماد و الطامحين للاستئثار به و توسيع ملكها بعد البناء و التطور.

- رام أمراء الدولة الحمادية من وراء اتّباع حرب الخديعة كاستراتيجية عسكرية ، تحقيق النصر بأقل التكاليف و الخسائر والجهود ،و في أقصر وقت ممكن.

- كان التكتيك الحربي الحمادي متباينا من فترة حكم أمير حمادي إلى أخر ، حسب الدهاء السياسي و الحنكة العسكرية لأمراء الدولة الحمادية. و قد تجلى ذلك الدهاء و تلك الحنكة خصوصا في عهد الأميرين الحماديين حماد مؤسس الدولة وحفيده الناصر بن علناس. فالأول كان له الفضل في ميلاد الدولة

ووضع أسسها الأولى، والثاني عرفت البلاد في عهده أعظم قوتها وأوج توسعاتها، حين هاجم الناصر ملك أبناء بني زيري في عقر دارهم، ودانت لسلطانه –ولو مؤقتا– بعض ممتلكاتهم على غرار صفاقس، قسطيلية وتونس، بل وأوشك ربما على دخول المهدية العاصمة الزيرية لو نجح تحالفه مع العرب وزناتة قبل موقعة سبيبة.

–كان فشل السياسة العسكرية المتّبعة من طرف أمراء الدولة الحمادية كثيرا ما يؤثر على مستقبل الدولة شأن ما حدث للناصر في موقعة سبيبة، وما كان له من عواقب وخيمة أثّرت على استمرارية التطور الحضاري للدولة، خصوصا عندما أقحم العرب الهلالية كطرف في صراعات الدولة.

– الخدعة الحربية قد تخدع صاحبها، في ظل كثرة الخداع المُتّبع في الحروب. وهو ما لمسناه في حرب الناصر الحمادي ضد بني زيري، أين لم تنطل خدعته وحيلته على تميم، فكانت موقعة سبيبة ضربة قاسية للعسكرية الحمادية.

قائمة المصادر و المراجع:

أولا : المصادر:

1-القرآن الكريم.

2- أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، مطبوعات ميموني للنشر و التوزيع ،الرويبة ، الجزائر.

3- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان ، مج7 ، تح ، إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1970.

4- ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية و تونس ، تح ، محمد شمام، المكتبة العتيقة ، (د.ت.ن) .

5- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، ج 1، تح ، ج س.كولان و إ.ليقي بروقنصال ، ط 3 ، دار الثقافة ، بيروت ،لبنان ، 1983.

6- الشريف الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،1414هـ -1994م.

7- شهاب الدين النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج24 ، تح ، عبد المجيد ترجيني، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د.ت.ن).

8- عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري: الجامع الصحيح ، ج2، شرحه ، محب الدين الخطيب ، راجعه ، قصي الخطيب ، ط2 ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، 1403هـ-1983م.

9- عبد الله أبو عبيد البكري: المسالك و الممالك ، مج 2 ، تح ، جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان ،1424هـ -2002م.

10- عبد الرحمن ابن خلدون : العبر و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ج6 ، ضبطه ، خليل شحادة ، راجعه ، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،1421هـ -2000م.

11- عماد الدين أبي الفداء اسماعيل ابن كثير: البداية و النهاية ، ج5 ، تحقيق ، عبد الله بن محسن التركي ، دار هجر للطباعة و النشر و التوزيع و الاعلان ،1418هـ - 1997م.

12-محمد ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مج 8، صححه ، محمد الدقاق ،ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1424هـ-2003م.

ثانيا : المراجع:

13- : إسماعيل العربي : عواصم بني زيري ملوك أشير -القلعة- بجاية- غرناطة -المهدية ، دار الرائد العربي ، بيروت ،1404هـ -1984م.

14- إسماعيل العربي : دولة بني حماد ملوك القلعة و بجايـــة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1998م.

15- خالد محمد عطوة: الخداع في الحرب ، رسالة ماجستير في الفقه المقارن ، الجامعة الاسلامية ، غزة، فلسطين ، 2005م.

16-رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر،2007م.

17- عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ،ط2 ،دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ،1411هـ- 1999م.

18- موسى هيصام: الجيش في العهد الحمادي (405 -547ه /1014 -1152م) ، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر ، 2000 -2001.